



السلطان محمد الفاتح (فاتح القسطنطينية)



رسم: ماهر عبد القادر

تأليف: د/ علي راشد

جميع حقوق الطبع محفوظة

برقم إيداع 2013/7071

المجد للنشر والتوزيع 0106372799

تُعَدُّ مَدِينَةُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ (مَدِينَةُ إِسْتَنْبُولِ التُّرْكِيَّةِ الْآنَ) مِنْ
أَكْبَرِ الْمُدُنِ فِي وَقْتِهَا، فَهِيَ تَصِلُ بَيْنَ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ وَالْبَحْرِ
الْأَسْوَدِ، وَتَصِلُ بَيْنَ قَارَتَيْ آسِيَا وَأُورُوبَا، كَمَا كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْمَرَاكِزِ
التَّجَارِيَّةِ فِي الْعُصُورِ الْوُسْطَى.



حَيْثُ كَانَتْ عَاصِمَةُ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ، قَالَ عَنْهَا الْقَائِدُ
الْفَرَنْسِيُّ الْكَبِيرُ (نَابْلْيُونُ): "إِنَّهَا تَصْلُحُ لَتَكُونُ عَاصِمَةَ الْعَالَمِ أَجْمَعَ
لِمَوْقِعِهَا الْفَرِيدِ، فَمَنْ يَسْتَطِيعُ السَّيْطَرَةَ عَلَيْهَا يَمْلِكُ الْعَالَمَ". وَلِهَذَا
كَانَ الصَّرَاعُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالرُّومَانَ عَلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ عَلَى أَشَدِّهِ.



وَكَانَ إِصْرَارُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى فَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ - عِلَاوَةً عَلَى مَوْقِعِهَا
- لِحَدِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَتَفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ
عَلَى يَدِ رَجُلٍ.....، فَلْنَعْمَ الْجَيْشُ جَيْشُهَا، وَلْنَعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا".



لِذَا كَانَتْ هُنَاكَ مُحَاوَلَاتٌ عَدِيدَةٌ - بَلَغَتْ عَشْرَ مُحَاوَلَاتٍ - لِفَتْحِ
هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ عَلَى مَدَى ٨٠٠ سَنَةٍ مِنْ عَهْدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَحَتَّى هَارُونَ الرَّشِيدِ، بَاءَتْ كُلُّهَا بِالْفُشْلِ حَتَّى جَاءَ
مُحَمَّدٌ الْفَاتِحُ.



وُلِدَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ الْفَاتِحُ عَامَ ٨٣٢ هـ - ١٤٢٩ م، وَاهْتَمَّ وَالِدُهُ
السُّلْطَانُ مُرَادٌ بِتَنْشِئَتِهِ حَيْثُ كَانَ يُعِدُّهُ لِلْحُكْمِ مِنْ بَعْدِهِ، وَيَتَوَسَّمُ
فِيهِ الْخَيْرَ، لِنُبُوغِهِ وَقُوَّةِ شَخْصِيَّتِهِ، فَغَرَسَ فِيهِ حُبَّ الْعِلْمِ، وَحُبَّ
الْإِسْتِقَامَةِ وَنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَرَسَخَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ هُوَ قَاهِرَ
الرُّومَانِ وَفَاتِحَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَبَدَأَ الْابْنُ يُعِدُّ نَفْسَهُ لِهَذِهِ الْمِهْمَةِ
الشَّاقَّةِ، فَحَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَاتَّقَنَ خَمْسَ لُغَاتٍ، ثُمَّ تَعَلَّمَ الْفَلَكَ
وَالْجُغْرَافِيَا وَالتَّارِيخَ، كَمَا تَعَلَّمَ فُنُونَ الْإِدَارَةِ، وَالْفُنُونِ الْحَرْبِيَّةِ
حَتَّى صَارَ فَارِسًا مَغَوَّرًا لَا يُشَقُّ لَهُ غُبَارٌ.



وَتَوَلَّى السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ الْفَاتِحُ حُكْمَ الْمُسْلِمِينَ عَقِبَ وَفَاةِ وَالِدِهِ عَامَ
٨٥٥ هـ - ١٤٥٢ م وَهُوَ فِي الثَّلَاثَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَبَدَأَ فَوْرًا
تَنْفِيذَ حُلْمِهِ بِفَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَأَخَذَ يَسْتَعِينُ بِأَهْلِ الْخُبْرَةِ
وَسَأَلَهُمْ عَنْ أَهْلِ الْأَسَالِيبِ وَالْخُطَطِ الْحَرْبِيَّةِ لَتَحْقِيقِ هَذَا الْفَتْحِ،
وَسَيَّطَرَتْ فِكْرَةُ الْفَتْحِ عَلَى عَقْلِ السُّلْطَانِ وَجَوَارِحِهِ، فَلَا يَتَحَدَّثُ إِلَّا
فِي أَمْرِ الْفَتْحِ، الَّذِي مَلَكَ قَلْبَهُ وَعَقْلَهُ.



وَسَاقَتْ لَهُ الْأَقْدَارُ مُهَنْدَسًا يُدْعَى "أُورْبَان" عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْنَعَ لَهُ
مَدْفَعًا ضَخْمًا يَقْدِفُ قَذَائِفَ هَائِلَةً تَكْفِي لِفَتْحِ أَسْوَارِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ
فَرَحَّبَ بِهِ السُّلْطَانُ، وَأَمَرَ بِتَرْوِيدِهِ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مُعَدَّاتٍ،
وَلَمْ تَمْضِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ حَتَّى تَمَكَّنَ "أُورْبَان" مِنْ صُنْعِ مَدْفَعٍ عَظِيمٍ يَزِنُ
٧٠٠ طُنَّ، يَرْمِي بِقَذَائِفَ هَائِلَةٍ تَكْفِي لِهَدْمِ أَسْوَارِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ.



وَسَعَدَ السُّلْطَانُ بِهَذَا الْمَدْفَعِ الرَّهِيْبِ أَيْمًا سَعَادَةٍ، وَتَخَيَّلَ نَفْسَهُ فِي
يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَا يَا
رَسُولَ اللَّهِ مَنْ تَحَدَّثَ عَنْهُ، أَنَا فَاتِحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ.



عندما علم الإمبراطور "قُسطنطين" بتوجهات السلطان العثماني في
القدوم إلى القسطنطينية لفتحها، أرسل إليه يطلب منه ألا يفعل
ذلك، فرفض السلطان محمد العثماني هذا الطلب، وأعلن الحرب
رسمياً على الدولة البيزنطية، فما كان من الإمبراطور الرومي إلا
أن أغلق أبواب مدينته، وأعلن أنه سيدافع عن القسطنطينية لآخر
قطرة من دمه.

وأخذ كل جيش يتأهب للقاء المرتقب والمُعركة القادمة، فبدأ
الإمبراطور "قُسطنطين" يحصن مدينته ويصلح الأجزاء المتهدمة
من أسوارها، وأعد وسائل الدفاع الممكنة، ومنها تجميع المؤن والغلال
استعداداً لحرب طويلة، وأيضاً وضع سلاسل حديدية ضخمة في
البحر أمام المدينة لمنع السفن الحربية من الوصول إلى أسوار
المدينة.



وَصَلَ السُّلْطَانُ الْعُثْمَانِيُّ فِي جَيْشِهِ الضَّخْمِ قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ
الْمُحَصَّنَةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ عَامِ ٨٥٥ هـ - الْمُوَافِقِ الْخَامِسِ مِنْ أَبْرِيلِ
عَامِ ١٤٥٣ م، وَتَمَّ بِنَاءُ مَرْكَزِ لِقَايَةِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ لِمُرَاقَبَةِ أَرْضِ
الْمَعْرَكَةِ وَحِصَارِ الْمَدِينَةِ، الَّتِي تَمَّ تَطْوِيقُهَا مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِقُوَّاتٍ
ضَخْمَةٍ بَلَغَتْ ٢٦٥ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، وَ ٣٥٠ سَفِينَةً حَرْبِيَّةً.

وَبَدَأَ الْحِصَارُ الْفَعْلِيُّ لِلْمَدِينَةِ، وَطَلَبَ السُّلْطَانُ "مُحَمَّدًا" مِنَ
الْإِمْبَرَاطُورِ قُسْطَنْطِينِ تَسْلِيمَ الْمَدِينَةِ لَهُ، وَتَعَهَّدَ بِاحْتِرَامِ سُكَّانِهَا
وَتَأْمِينِهِمْ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَمُعْتَقَدَاتِهِمْ وَمَمْتَلَكَاتِهِمْ، وَلَكِنَّ الْإِمْبَرَاطُورَ
رَفَضَ.



فَأَمَرَ السُّلْطَانُ الْعُثْمَانِيُّ بِإِطْلَاقِ الْقَذَائِفِ الْهَائِلَةِ عَلَى أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ
لَيْلَ نَهَارٍ، وَمَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ بَدَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يُعَانُونَ مِنْ نَقْصِ الْمُونِ،
وَيَتَوَقَّعُونَ سَقُوطَهَا مِنْ يَوْمٍ لآخر.

وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ وُضُولِ عَدَدٍ مِنَ السُّفُنِ الْحَرْبِيَّةِ إِلَى الْقُرْبِ مِنْ سُورِ
الْمَدِينَةِ، وَلَكِنَّ السَّلَاسِلَ الْحَدِيدِيَّةَ الضَّخْمَةَ مَنَعَتْهَا؛ فَوَضَعَ السُّلْطَانُ
"مُحَمَّدٌ" خُطَّةً عَبْقَرِيَّةً لِيُضِلَّ عَدَدٌ مِنَ تِلْكَ السُّفُنِ الْحَرْبِيَّةِ إِلَى
الْقُرْبِ مِنْ سُورِ الْمَدِينَةِ.



فَفِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي زَادَتْ الْمُدْفَعِيُّ صَرِبَاتُهَا بِشَدَّةٍ لَأَسْوَارِ الْمَدِينَةِ،
وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ تَمَّ تَحْرِيكُ هَذِهِ السُّفُنِ عَلَى الْيَابَسَةِ عَلَى الْأَوَاحِ
خَشَبَ دُهْنَتْ بِالزَّيْتِ، وَيَجْرُهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الثَّيْرَانِ وَالْجُنُودِ لَتُقَاجَا
قَوَاتُ الْإِمْبِرَاطُورِ صَبَاحًا بِدُخُولِ هَذِهِ السُّفُنِ نَاحِيَةَ الْأَسْوَارِ،
وَصَعِدَتْ أَعْدَادُ هَائِلَةٌ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ بِسِلَاحٍ خَشْبِيَّةٍ عَلَى
الْأَسْوَارِ، وَرَغْمَ مُحَاوَلَةِ جُنُودِ الرُّومِ مَنَعَ جُنُودَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ اجْتِيَازِ
أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ، إِلَّا أَنَّ التَّدْفُقَ الْهَائِلَ لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ بَدَأَ إِلَى دَاخِلِ
الْمَدِينَةِ الَّتِي سَقَطَتْ أَخِيرًا وَقَتْلَ الْإِمْبِرَاطُورِ "قُسْطَنْطِينَ" وَقِيَادَاتِ
جَيْشِهِ، وَنَجَحَ الْأُسْطُولُ الْعُثْمَانِيُّ فِي رَفْعِ السَّلَاسِلِ الْحَدِيدِيَّةِ
الضَّخْمَةِ لَتَغْبِرَها كُلُّ السُّفُنِ،

وَدَخَلَ السُّلْطَانُ الْعُثْمَانِيُّ مُحَمَّدٌ الْفَاتِحُ مَدِينَةَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ
ظَافِرًا، وَتَرَجَّلَ عَنْ فَرَسِهِ، وَسَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا عَلَى هَذَا الْاِتِّصَارِ،
وَذَاكَ الْفَتْحَ الْعَظِيمَ، وَمَنَحَ الْأَمَانَ لِلشَّعْبِ الْبِيزَنْطِيِّ، وَحَوْلَ كَنِيسَةِ
"أَيَا صُوفِيَا" إِلَى مَسْجِدٍ، وَأَمَرَ بِإِقَامَةِ مَسْجِدٍ فِي مَوْضِعِ الصَّحَابِيِّ
الْجَلِيلِ "أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ" الَّذِي كَانَ ضَمْنَ صُفُوفِ الْحِمْلَةِ الْأُولَى
لِفَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ.



وَمُنْذُ هَذَا الْفَتْحِ صَارَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ الَّتِي أَصْبَحَ اسْمُهَا "إِسْتَنْبُولُ"
عَاصِمَةً لِلدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ.

وَبَعْدَ إِتْمَامِ النَّصْرِ الَّذِي حَقَّقَهُ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ الْفَاتِحُ وَهُوَ لَا يَزَالُ
شَابًّا لَمْ يَتَجَاوَزِ الْخَامِسَةَ وَالْعَشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ اسْتَكْمَلَ فُتُوحَاتِهِ فِي
بِلَادِ الْبَلْقَانِ، فَفَتَحَ بِلَادَ: الصَّرْبِ، وَالْبَانِيَا، وَالْبُوسْنَةَ وَالْهَرَسَكَ،
وغيرها.



وَبَعْدَ حَيَاةٍ اسْتَمَرَّتْ ثَلَاثِينَ عَامًا مِنَ الْحُكْمِ حَتَّى مَاتَ مُحَمَّدٌ الْفَاتِحُ
عَامَ ٨٨٩ هـ - ١٤٨١ م، وَعُمُرُهُ ٥٣ عَامًا وَيُقَالُ إِنَّ أَحَدَ أَطِبَّائِهِ قَدْ
دَسَّ السُّمَّ لَهُ فِي طَعَامِهِ، رَحِمَ اللَّهُ السُّلْطَانَ مُحَمَّدًا الْفَاتِحَ وَأَسْكَنَهُ
فَسِيحَ جَنَاتِهِ.

